مع المعري في « اللزوميات »

الدكتور إبراهيم السامرائي

لقد اختلف الدارسون في النظر إلى « اللزوميات » فالذين نظروا الى الشعر نظرة العاطفة والصورة الفنية والإعراب عن ذلك برشيق اللفظ والعبارة الموحية والإيماءة البعيدة والقريبة لم يجدوا حاجتهم في هذا الفن الذي قسا فيه حكيم المعرّة على نفسه فركب الصعب فكان له أن « التزم بما لا يلزم » . وذهبوا إلى أن الفكر والرأي والحكمة والوصول إلى غرائب المعنى مما لم يكن في دائرة ما يدركه أهل الأدب غير قريب من فن الشعر الذي يجدونه في شعر جمهرة من شعراء العرب .

غير أن الذين ذهبوا إلى غير هذا فآثروا الفكرة والمعنى والرأي في خطرات العقل وما يصل إليه في فوائده مما يكون في التأمل والقراءة والاطلاع ، لا يعطون ما اتصل بالعاطفة من حديث النفس وهوى القلب قيمة كبيرة ، ومن هذا ذهاب الأستاذ كامل كيلاني في « مقدمته » لهذه النشرة من « اللزوميات » إلى نعته شعر المعري في « سقط الزند » بالهذر والعبث . وإني لأعجب كيف يسوغ لرجل حُمل على العربية أن يقول مثل هذا ، فكيف يكون الأدب الإنساني بما فيه من صدق ووفاء ، وهو ذاك الذي كان من المعري في « سقط الزند » هذراً ؟ فكيف لنا أن نسم قصائده العاطفية بـ « الهذر والعبث » ؟ وأين العبث في قصائده التي أنشدها في بغداد ؟ وكيف لدارس أن يقول إن المعري من أهل الهذر وهو يتلو قصيدته التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السَمَرِ لعلّ بالجزع أعواناً على السهرِ

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعرّي ، حققه أمين عبد العزيز الخانجي (منشورات مكتبة الهلال ببيروت ومكتبة الخانجي في القاهرة) . وفي هذه النشرة الكثير مما يقال ، وليس من غرضي أن أعرض لهذا الأمر .

والتي قال فيها :

ويا أسيرة حِجَليها أرى سفهـاً حملَ الحُليّ لمن أعيا عـن النظرِ

لو حَطّ رَحْليَ فوق النجم حامله وجدتَ ثَمّ خيالاً منك منتظري

وأين « الهذر والعبث » في قوله وهو متشوق إلى « المعرّة » :

فيا بَرقُ ليس الكرخ داري وإنما رماني إليها الدهر منذ ليـالِ

فهـل فيك مـن مـاء المعرّةقطرةٌ تبُلُّ بها ظمآنَ ليـس بسالِ

وأعود إلى « اللزوميات » فأجد المعري قد أراد أن يوسع دائرة الشعر لتضم خطرات الفكر وسعة في النظر إلى ما حوله من ملل ونحل وعادات وأوابد ، وأنت تلمح في كل ذلك سعة معارف الرجل في علوم عصره وما ورثه العصر من معارف قديمة وحديثة .

وهو إلى جانب هذا كله ناظر ناقد يقر ويرفض ما بدا له واهتدى إليه فهمه .

وقد تعجب أن يكون قد عرض لجملة هذه المعارف في نظـمه هـذا الذي دعاه « لزوم ما يلزم » فشق على نفسه وتكلف العناء ، والصنعة لدى المعري جهد مضن كلّفه ما لم يعرض لأي من أصحاب صنعة النظم .

وهو في هذا يعتمد على ما توفر له من معين لا ينضب من معرفة لغوية واسعة .هذه المعرفة تتجاوز استيعابه للمعجم القديم إلى معرفة وافية بأصول العربية وأبنيتها وما يكون منها مما ينبغي أن يعرفه صاحب هذه الصنعة العسيرة التي اقتضته تطويع الكلمة في هذا النظم العسير الذي لم يُتح إلا لصاحب طاقة وافية .

وربما فات الدارسين طوال العصور حقيقة عرف بها المعري دون غيره من الأعلام ، وهي : إنه عبقري جمع في فكره على « إضراره » ثروة لم تكن لغيره .

كان المعري من أصحاب اللغة الأفراد الذين استوعبوا من العربية ما لم يكن لسائر أهلها الذين عرفوا بفرائدها .

كان المعري نحوياً ضليعاً عارفاً بما ندعوه في عصرنا بالصنعة الصرفية ، وهو من أصحاب العروض ، وإذا قلت : إنه من أصحاب العروض فإنني أرمي إلى أنه أتقن هذه الصنعة التي عافها الكثيرون لعسرها .

إن « مقدمة » اللزوميات تشهد أن هذا الفريد الضرير قد أدرك أجزاء هذه الصنعة العسيرة . وقد تدرك عسر هذه الصنعة حين تقرأ كتب الطبقات في النحاة واللغويين فلا تقف فيها إلا على فئة قليلة منهم نعتوا بهذه الصنعة واستحقوا أن يقال فيهم « عروضيون » .

لقد شق المعري على نفسه فاختار الصعب ليقول أو ليسجل لنفسه أن إضراره أي عماه لم يمنع من سطوع نجمه ، ولم يكن كسائر من ابتلوا بهذه العاهة فقنعوا باليسير من العلم .

لقد عرفنا القليل ممن ابتلوا بالعمى فأدركوا بجدهم أن ذلك لم يمنعهم من مطاولة العمالقة العباقرة ، وإني لأقف من ذلك على أعمى « دانية » وهو العالم اللغوي الأندلسي ابن سيده صاحب « المحكم » و « المخصص » . وكيف ننسى الصفدي صاحب المطولات ومنها « الوافي بالوفيات » وقد أراد الصفدي أن يثبت لطائفة العميان شيئاً من السبق والبراعة فكان له كتابه الطريف « نَكْت الهميان في نُكَت العميان » .

ولنا أن نلحق بهؤلاء المتقدمين البارعين الدكتور طه حسين الذي أحرز بجده واجتهاده وذكائه ما كان له أن يدركه من المكانة والبراعة . لقد رأى طه حسين في المعّري ثائراً انتفض على ما ساد في عصره من مفاهيم ، وهو في « سجنه » الذي فُرض عليه ، وذاك الذي فرضه على نفسه .

وكأني ألمح ثورة أبي العلاء في طائفة مما ورد من شعره في اللزوميات ، ذلك أني وجدته شديد الميل إلى الشيعة يمدحهم ويذكر رموزهم بإجلال وتقديس على نحو ما يفعل أولو الرأي من الشيعة . إن الشيعة طوال عصور إسلامية متلاحقة يؤلفون عناصر المعارضة الذين يرون أن أئمتهم أصحاب الحق الذي ذيد عنهم ، وهم من هنا تَشبثوا بالحق ، وأكسبهم ذلك رأياً وتصوّراً تحول إلى ما يشبه العقيدة .

وأنت تدرك مدى انحياز أبي العلاء المعري إلى السعي المتطرف الذي نلمح وجوده لدى الطوائف المنحدرة عن الشيعة التي أكسبها التشيع خصوصية قد تكون غير ظاهرة لدى الشيعة الإمامية الاثني عشرية .

قلت : ندرك مدى انحياز المعري إلى هذه الممارسات في الاعتقاد[1] حين نراه أشد ما يكون قسوة على الملتزمين بالدين وينعتهم بالرياء والمروق والخروج عن جوهر العقيدة ، وأنت تجده قاسياً على القائمين بالفرائض ومنها الصلاة ، فهو يقول :

قد حُجِبَ النورُ والضياءُ ... وإنما ديننا رياءُ
يا عالَمَ السوء ما علمنا ... أن مُصَلِّيَكَ أتقياءُ
لا يكذبَنَّ امرؤ جهدك ... ما فيك لله أولياءُ

وقال أيضاً :

أرائيك فليغفر ليَ الله زلتي ... بذاك ودين العالَمين رياءُ
اذا قومنا لم يعبدوا الله وحده ... بنصح فإنا منهمُ بُرَءاءُ

وقد يذهب المعري من نقد الدين والملتزمين به إلى نقد الناس عامة فينال منهم ويتنقّصهم فيقول مثلاً :

أولو الفضل في أوطانهم غُرَباءُ ... تشذّ وتنأى عنهم القُرَباءُ
فما سبأوا الراح الكميت للذّة ... ولا كان منهم للخراد سباء

(١) قلت : « هذه الممارسات في الاعتقاد » وأريد بها ما نعرفه لدى الجماعات المنحرفة التي تلحق بالشيعة ، وهي قد تبتعد فيما يكون منها عن الشريعة الإسلامية كالإسماعيلية والنصيرية وغيرهما ، والتي ما زال منها مما يشتهر بالدروز والعلويين وغيرهما .

وهو في ذهابه إلى ذم الناس ينقلب إلى نفسه مكبراً مادحاً مفتخراً فيقول :

اذا ما خَبَتْ نار الشبيبة ساءني ... ولو نُصَّ لي بين النجوم خِباءُ
أرابيكَ في الودّ الذي قد بذلتُه ... فأضعُفُ إن أجدي لديك رباءُ
أجِدَّكَ لا ترضَى العَباءة ملعباً ... ولو بانَ ما تسُديه قيلَ عَباءُ
تواصَلَ حبل النسلِ ما بين آدَمٍ ... وبيني ولم يُوصَل بلاميَ باءُ
تَثاءَب عمرو إذ تَثاءَبَ خالدٌ ... بعَدْوَى فما أعدَتْني الثُؤباءُ
وَزَهَّدني في الخَلْق معرفتي بهم ... وعِلمي بأنَّ العالمين هَباءُ
وما أدَبُ الأقوام في كلّ بلدةٍ ... إلى المَيْن إلاّ مَعشرٌ أدَباءُ

أقول : لقد رأينا المعّري وهو في نظره إلى الناس وما يكون منهم ، وإلى نفسه وما اختص به قد ذهب في هذا النظم الذي اجتهد فيه أن يظل مع الشعر جمالاً لفظاً وصياغة . وقد تجاوز هذا فشقي على نفسه فلزم الباء ثم جاء بعدها بالألف فالهمزة .

ولكن هذا « التعسف » لم يبعده عن صنعة الشعر ، فظل شاعراً ولم يكن الفكر المنسم بالحكمة شاقاً على صنعته .

ثم إنه في نظره إلى الناس ليذهب إلى بسط معرفته فيهم من الناحية الاجتماعية التاريخية فيقول مثلاً :

وأرواحنا كالراح إن طال حبسها ... فلا بد يوماً أن يكون سِباءُ
تعادَت بنو قيس بن عيلان بالغنى ... فثابوا كأنّ المسجد الثؤباءُ

وقيس بن عيلان بطن من بكر بن وائل .

وقال :

سألت رجالاً عن مَعَدٍّ ورهطه ... وعن سَبَأ ما كان يسبي ويسبأ

وقالوا في « سبأ » هذا الذي أورده أبو العلاء المعري في هذا البيت إنه عبد شمس الذي غزا الديار المصرية وحمل منها الأسرى والسبايا فلقب « سبأ » .

وأعود إلى سخط المعري على الناس ونيله منهم وبرمه بهم وبما درجوا عليه واعتقدوا في عاداتهم ونحلهم فأجده يغلو في دأبه هذا فيقول :

إن مازَت الناسَ أخلاقٌ يعاش بها فإنهم عند سوء الطبع أسواء (١)

وهو يبتعد عن الناس ويجعل بُعده عنهم خلاصاً مما هم فيه من فساد فيقول :

بُعدي عن الناس بُرءٌ من سقامهمُ وقربُهمُ للحجى والدين أدواء

وكما كان البُعد عنهم شفاء مما هم فيه من داء كذلك يكون التقّرب منهم مفسداً للعقل والدين ، وهو يضرب في ذلك مثلاً ويشبه ما كان من بُعده عن سقامهم بما يعرض لبيت الشعر من إيطاء وسِناد وإقواء وذلك في قوله :

كالبيت أُفرِدَ لا إيطاء يُدركه ولا سِناد ولا في اللفظ إقواءُ

أقول : إن بعد الشاعر عن الناس ونيله منهم وشكه في دينهم وعقيدتهم ليشير إلى أنهم لا يعرفون الدين الصحيح فهم أهل رياء ، كالبهائم لا عقول لهم ، فيقول :

تعالَى رازقُ الأحياء طُرّاً لقد وَهَت المروءة والحياءُ
وإن الموتَ راحةُ هِبْرزيٍّ أضرَّ بلُبّه داءٌ عَياءُ
وقد فتّشت عن أصحاب دينٍ لهم نُسُكٌ وليس لهم رياءُ
وألفيتُ البهائمَ لا عقولٌ تُقيم لها الدليل ولا ضياءُ

(١) « أسواء » جمع سواء على غير قياس ، ذكره أبو زيد .
أقول : إن ذهاب المعري إلى نوادر الكلم التي شغلت أهل اللغة لدليل على أنه أراد أن يكون من أهل العربية ، وأن يندرج في جمعهم . ومن هنا كان المعاصرون بعيدين عن الحقيقة في عدّهم المعري شاعراً حكيماً ، وليس الشعر إلا حاشية ضيقة في معرفة المعري الواسعة .

وقد ذهب كثير من الدارسين إلى الشك في اعتقاده ، وأنه منحرف وقد نسبوا إليه شيئاً ليذهبوا به إلى إلحاده ، ولم يكن كما أرادوا لأنه يقول :

تَوَحَّدْ فإن اللـــه ربّكَ واحــدٌ ولا ترغَبنْ في عشـرة الرؤسـاء

غير أن المعري مرتاب في دين الكثيرين الذين وصفهم بالرياء في صلواتهم ونسكهم وقيامهم بالفرائض الأخرى ، وهم في ذلك كله قد ارتضوا « عشرة الرؤساء » الذين حرفوا دين الله إلى ما يهوون ، وقال مخاطباً أولئك الملوك :

يا ملوكَ البلاد فزتمُ بنسءِ العمــر والجــور شأنكــم فــي النَّســاء
مـا لكـم لا تــرون طُـرقَ المعالـي قـد يـزور الهيجـاء زيـر نسـاء

ويشير المعّري بقوله : « زير نساء » إلى عدي بن زيد التغلبــي (المهلهل) الملقب بـ « زير نساء » . ولبرمه بالناس وابتعاده عنهم وجور الرؤساء وظلمهم ذهب إلى أن المظلومين راحوا يتشبثون بالإمام القائم الذي سيظهر في آخر الدنيا فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، إنه « الإمام المنتظر » لدى طوائف الشيعة ، وهو الفكر الذي وجد فيه المظلومون فرجاً . إن هذا الفكر الذي يتشبث بالخلاص والنجاة قد عرفه غير الشيعة في عصور الظلم ، فقد عرفنا شيئاً مثله لدى الأمويين عند مجيء العباسيين وفتكهم بهم فكان للأمويين المظلومين « السفياني المنتظر »

و كان من هذا لدى النصارى حين نالهم ظلم اليهود وعسفهم ، ومن هنا كان من ألقاب السيد المسيح « المخلّص » .

قال المعرّي :

يرتجي الناسُ أن يقوم إمام ناطقٌ في الكتيبة الخرساء

أقول : و« الكتيبة الخرساء » تعني الجيش الذي لا يسمع له صوت لكثرة الأصوات فيه و « الإمام الناطق » هو « المهدي المنتظر » ويسمونه « الإمام الناطق » لأنه يدعو إلى

نفسه ، وتسمّي هذه الطوائف الشيعية سائر أئمتهم « صمتاً » لصمتهم عن إقامة الدعوة حتى يظهر المهدي .

غير أن المعري الذي ذهب إلى هذه الإشارة التاريخية قد أنكر هذه الدعوة فقال في وضوحه وسعة نظره :

كَذَبَ الظنُّ لا إمامَ سوى العقل مشيراً في صُبحه والمساءِ

....

إنما هذه المذاهب أسبا بٌ لجَذْبِ الدنيا إلى الرؤساء

لقد رفض المعّري هذا الذي تشبث به الشيعة أملاً بالخلاص والنجاة من الظلم الذي لحق بهم على أيدي خصومهم من الأمويين والعباسيين ، وقال :

غَرضُ القوم متعة لا يرقون لدمع الشمّاء والخنساء

كالذي قام بجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

وكأن المعرّي في هذه الاشارات التاريخية إلى صاحب الزنج[1] في البصرة وإلى القرمطي في الأحساء وهو حمدان قرمط ، أراد أن يشير إلى أن الرؤساء قد أفادوا من إحساس الناس بالظلم فأفادوا من ذلك وترأسّوا عليهم فكان منهم ما كان من ثورة وخروج على السلطة الحاكمة .

وكأنه أيضاً قد أدرك في نظره أن الظلم باق وأن الوجود للخلق مقترن بالظلم فقال :

---

(١) صاحب الزنج هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أقول : لقد تكلموا في ادعائه هذا النسب العلوي كثيراً .

ويــا بــلاداً مَشــى عليهــا … أولـــو افتقـــار وأغنيـــاءُ
إذا قضـــى اللـه بالمخـــازي … فكـــل أهليـــكَ أشقيـــاء
كم وعـــظ الواعظـون منّـا … وقــام فــي الأرض أنبيـــاء
فانصرَفـــوا والبـــلاء بـــاقٍ … ولـــم يَـــزُلْ داؤكَ العيَـــاءُ
حُكمٌ جَـرَى للمليـك فينـــا … ونحـن فــي الأصــل أغبيــاء

وقد ترى اضطراب أبي العلاء الذي أدى به حيناً إلى إنكار ما لم يكن طبعاً فيه ،(١) لأنك تجده يقول :

مَــن لـيَ أن أقيــم فـي بَلَـدٍ … أُذكَرُ فيــه بغـير مــا يجــبُ
يُظَنُّ بـــي اليُسـر والديانــة … والعلـم وبينـي وبينهـا حُجُـب
كـل شهـوري علـيٌّ واحــدةٌ … لا صَفَـرَ يُتَّقَـى ولا رَجَــب
أقررتُ بالجهل وادَّعـى فهمـي … قوم فأمري وأمرُهم عَجَــبُ
والحـق أنّـي وأنّهـم هَـدَرٌ … لستُ نجيباً ولا هُمُ نُجُـبُ
والحال ضاقت عن ضمّها جَسَدي … فكيفَ لي أن يضمّه الشَجَــبُ
ما أوسع الموت يستريح به الجسم … المُعَنَّـى ويخفُـتُ اللَّجَـبُ

(١) أقول : لعل المعري بدأ اعتقاده بشيء من التشيع قريب مما لدى الإسماعيلية أو النصيرية ، فقد نرى شيئاً من هذا في شعره في « سقط الزند » فقد قال يجيب الشريف أبا إبراهيم موسى بن إسحاق عن قصيدة أولها :

غير مستَحسن وصال الغواني … بعد ستين حجّةً وثمانِ

فقال المعري في جوابه في قصيدته التي مطلعها :

علّلاني فإن بيض الأماني … فَنيت والظلام ليس بفاني
وعلى الدهر من دماء الشهيدين … علـيٍ ونجلـه شاهـدان
فهما في أواخر الليل فجـران … وفـي أوليائـه شَفقـانِ
ثبتا فـي قميصـه ليجـيء … الحشر مستعدياً إلى الرحمن
يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ … ومبيـد الجمـوع مـن غَطَفـان

وأنت تجد في رثائه لأبي أحمد الملقب بالطاهر والد الشريفين الرضي والمرتضى نفحة من حماسة وتشيع صادق .

أقول : تعرف هذا وتعرف غيره من شعره الذي تجد فيه صدقاً ومعرفة وإيماناً ، وهذا يشير إلى اضطرابه واضطراب عصره ، وما كان فيه من أخلاق الناس وبعدهم عن الصواب ، وما كان من جور الرؤساء والملوك كما ذهب إلى هذا في شعر كثير ، وقد مرّ بنا شيء منه ، على أننا نجد إيمانه بقدرة الله وسلطانه في قوله :

انفـــرَدَ اللـــهُ بسلطانـــه　　　فمالــه فــي كـل حـالٍ كفـاءْ
ما خفيــت قدرتــه عنكُمُ　　　وهل لها عن ذي رشــادٍ خفــاءْ

وقال أيضاً :

بعِلم إلهي يوجد الضعف سيمتي　　　فلستُ مُطيقاً للغدوّ ولا المسـرَى
غَبَرتُ أسيراً في يديه ومن يكن　　　له كَرَم تُكْرَمْ بساحتـه الأسرى
أأصبح في الدنيا كما هو عالمٌ　　　وأدخل ناراً مثل قيصرَ أو كسرى
وإني لأرجـو منـه يومَ تجـاوز　　　فيأمرُ بي ذات اليمين إلى اليُسرى
إذا راكب نالت به الشأو ناقـةٌ　　　فما أينقي إلا الضوالع والحَسْرى
وإن أعف بعـد الموت مما يَريبني　　　فما حظي الأدنَى ولا يَدي الخَسْرَى

أقول : في هذه الأبيات نجد إيمان المعّري بالله واليوم الآخر ، كما نجـــد أنه شاكٍ مما هو فيه ، ومن نصيبه في دنياه . وقد يبلغ فيه الأسى مبلغه فيسخط على ما هو فيه فيدفعه ذلك إلى الإنكار وإلى ذمّ الناس وأخلاقهم ، وهذا كثير ، ومنه :

في البدوِ خُرّاب أذوادٍ مُسوَّمةٍ　　　وفي الجوامع والأسواق خُرّابُ
فهؤلاء تَسَمَّوا بالعُدول أو التجار　　　واســم أولاكَ القــومِ أعـرابُ

وهو في هذين البيتين يذهب أن البدو سُرّاق الإبل المسوّمة شأنهم شأن أهل المساجد وأهل الأسواق أو كلهم أهل حرام وباطل . وهو يقول مثل هذا :

ما قَرَّ طاسُكَ في كف المدير له إلاّ وقرطاسُك المرعوب مرعوبُ
تُضحي وبطنك مثل الكعبِ أبرزه رِيٌّ، ورأسك مثل التَعْب مقلوب

إنه يشكو من أن أهل الحظوة الذين نعموا وفازوا في دنياهم هم الجهلاء الذين لا يملكون عقلاً ولا دراية.

وتقف في بعض « لزومياته » على فوائد لغوية فيها إشارات لشيء من المثل القديم وما يتصل به من فوائد تاريخية، ومن هذا قوله:

إن رابنا الدهر بأفعاله فكلّنا بالدهر مرتابُ
فاعفُ ولا تعتب عليه فكم أودَى به عوفٌ وعتّابُ (١)

ومثل هذا قوله:

أشأمُ من ناقة البسوس على الناس وإنْ يُنَلْ عندها الطَلَبُ

وأقول: إن هذا الذي شطح به أبو العلاء ودفعه إليه فكره الذكي الجّوال، ونال من الناس وما اضطربوا فيه من أمور دينهم ودنياهم، لا يعني كله أنه مارد ملحد مارق فهو القائل:

خلّني يا أُخَيّ أستغفر الله فلم يبقَ فيَّ إلا الذماءُ
إنّ دنياك من نهارٍ وليلٍ وهي في ذاك حيَّة عَرْماء

---

(١) أقول: جاء في المثل « لا حُرّ بوادي عوف » و « أوفى من عوف ».
وهو عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان، أو هو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وعتّاب كشدّاد من أسماء الصحابة، وفي الجاهلية هو جد عمرو بن كلثوم صاحب الفتكة بعمرو بن هند الملك، والقضية مشهورة.

والبرايا حازوا ديون منايا سوف تُقضى ويُحضَر الغُرَماءُ
وَرَدَ القوم بعد ما مات كعبٌ وارتوى بالنمير وَفْدٌ ظماء(1)

ثم أنت في غير هذه الدنيا العربية حين تقرأ ما يقوله فيذكر سقراط وبقراط ، وما كان من أمرهما فيقول :

ولم يدفع ردَى سقراط لفظ ولا بقراط حامَى عنه طِبّ(2)

وإذا نال المعري من ذوي التقى والورع وسخر منهم وارتاب في دينهم فقال مثلاً :

لعلّ أناساً في المحاريب خوّفوا بآي كناسٍ في المشارب أطربوا
إذا رام كيداً في الصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

أقول : إذا كان منه ذاك فإنه تجاوزهم أو قل جعلهم كسائر الناس الذين حمل عليهم ونال منهم ورماهم بكل ما ينأى بهم عن المروءة ، وقد يكون منه أن أدرك السبب حين قال :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمّةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيّة واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

---

(1) أقول : كعب هذا هو كعب بن مامة أحد أجواد العرب في الجاهلية ، خرج في بعض أسفاره ومعه رجل من النمر بن قاسط فقلّ ما معهما من الماء فتناصفاه ، فكان النمري يشرب نصيبه ، فإذا أخذ كعب ليشرب قال له : اسق أخاك النمري فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب ومات عطشاً فضُربَ به المثل في الإيثار .

(2) أقول : سقراط أعرض عن ملاذّ الدنيا وأعلن مخالفة قومه في عبادتهم الأصنام ، وقابل رؤساءهم بالحجاج فأثاروا عليه العامة ، فاضطرّ ملكهم إلى قتله ، فحبسه وسقاه السم .
(عيون الأنباء ١/٤٣) .

وكأنّ أبا العلاء المعري قد انتهى إلى هذا الارتياب بالناس عامة سواء فيهم الأمراء والرؤساء والدهماء ، فقد خبرهم خبرة تجارب طويلة فبرزت له مساوئهم الكثيرة التي حملت الضيم على محاسنهم . وأنت لا تقف في صنعة أبي العلاء هذه التي شقي فيها غير تثريب وتعزيز وكشف للسوءات . وكأن الناس عامة جبلوا على السوء والمكر وسائر ألوان الشر .

قال :

رويدَكَ قد غُررت وأنت حرٌّ ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرّم فيكمُ الصهباء صبحاً ... ويشربها على عمدٍ مساء

وهو القال :

إذا كان علم الناس ليس بنافع ... ولا دافع فالخُسْرُ للعلماءِ
قضى الله فينا بالذي هو كائنٌ ... فتمَّ وضاعتْ حكمةُ الحكماء

غير أن المعري يبرم بما كان للناس وما أريد لهم فيعلو صوته جاحداً منكراً ويقول :

أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما ... دياناتكُم مكْرٌ من القُدَماء

قلتُ : إن المعرّي مشغول بسعة معارفه ، ولعل من أبرزها إحاطته بالعربية إحاطة لا نجدها حتى لدى الذين اشتهروا بالعلم اللغوي من اللغويين والنحاة ، وكأن الذين ترجموا للغويين والنحويين قد أدركوا هذا الجانب من علوم المعري فأدرجوا المعري بين طائفة اللغويين والنحاة[1] .

---

(١) حفلت كتب طبقات اللغويين والنحاة بترجمات مفيدة للمعري . انظر « نزهة الألباء » و« إنباه الرواة » و « بغية الوعاة » وغيرها .

قال المعرّي :

والمِصْرُ آنَسُ منه خَرْقُ مفازةٍ أنِسَ الدليل بقافها مع طائها

أقول : كأن المعرّي قد أشار بقوله : « أنس الدليل بقافها مع طائها » إلى المثل القديم : « إنّه لأدلّ من قطاة » ، وهو أن القطاة ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة .

إن إفادة المعري من الإشارات بل الإيماءات اللغوية والتاريخية وسائر المعارف العلمية واضحة في « لزومياته » ، وكذلك في « سقط الزند » ، وقد يكون مما نحن فيه من الفوائد اللغوية قوله:

بُعْدي من الناس بُرءٌ من سِقامِهِمُ وقربُهم للحِجى والدين أدواءُ

كالبيت أُفرِدَ لا إيطاء يُدركه ولاسنادٌ ولا في اللفظ إقواء

أقول : لقد جاء في البيت الثاني مصطلح « الإيطاء » من مواد العروض ، وهو أن يتكرر لفظ القافية ومعناها وليس بينهما غير بيت واحد ، فإذا اتفق اللفظان واختلف المعنى لم يكن « إيطاء » .

و « السناد » : وهو كل عيب يحدث قبل « الروي » كإرداف قافية وتجريد أخرى .

و « الإقواء » : وهو اختلاف إعراب القوافي .

وهذا كله من « عيوب القافية » .

ومثل هذا في شعر المعري قوله أيضاً :

أكفيء سَوامَك في الدنيا مياسرة وأعرضَنْ عن قوافي الشعر تُكفِئُها

أقول : وفي هذا البيت قوله : « أكفئ » وهو أمر بـ « الإكفاء » والأصل في معناه من قولهم : أكفأ الرجل غيره إبله ، اذا أعطاه إياها يأخذ نتاجها عاماً ، ولكنه في المصطلح « الإكفاء » في الشعر ، وهو « الإقواء » . ولعله من مصطلح الخليل بن أحمد ونقل أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء ويونس وغيرهم .

إن هذه الإيماءات تشير الى سعة المعرّي في علوم العربية ، وقد يكون كلامه في مقدمة « اللزوميات » خير دليل على إجادته العروض ومعرفة أسراره ، إن هذه « المقدمة » تؤلف مادة كتاب في « العروض » ، وتشير أيضاً إلى معرفته بالشعر القديم معرفة قل أن نعرفها لدى غيره من الشعراء .

ومن معارف المعري مما نجده في « لزومياته » معرفته بالأيام والشهور وما يتصل بها مما كان لدى العرب في علومهم ، فهو يقول :

بَدْءُ السعادة أن لم تُخْلَقِ امرأةٌ فهل تَوَدُّ جُمادَى أنّها رَجَبُ

أقول : لم يأت المعري بـ « جمُادى ورجب » لأن مقطوعته هي في الباء المضمومة مع الجيم ، بل إنه قصد أن يهدي القارئ إلى دلالة كلّ من الشهرين .

إن « جمادى » شهران ، وروي عن أبي الهيثم : « جُمادى ستّة » هي جُمادَى الآخرة ، وهي تمام ستة أشهر من أول السنة ، ورجب هو السابع ، وجمادى خمسة ، وهي الخامسة من أول شهور السنة ، والشتاء عند العرب جمادى لجمود الماء فيه .

و « رجب » : شهر سمّوه بذلك لتعظيمهم إيّاه في الجاهلية عن القتال فيه ، ولا يستحلّون القتال فيه ، وفي الحديث : رَجَب مُضَرَ الذي بين جمادى وشعبان ، تأكيد للبيان وإيضاح له ، لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر فيتحول عن موضعه الذي يختصّ به ، فبيّن لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان ، لا ما كانوا يسمّونه على حساب النسيء .....» (١)

وقال في مقطوعة أخرى :

كلّ شهوري عليّ واحدةٌ لا صَفَرٌ يُتَّقَى ولا رَجَبُ

و « صَفَر » ثاني الشهور العربية ، كانت تتشاءم به العرب حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك فيما نهى عنه من عادات الجاهلية .

---

(١) انظر مادتي « جمد ورجب » في « لسان العرب » .

ويندرج في هذه المعرفة القديمة ما كان له من معرفة فلكية عرفها العرب في عصورهم القديمة وكان لها مصطلح خاص ، فقد جاء في مقطوعة في الباء المضمومة مع الباء وياء الردف قوله :

ما الثريا عنقـود كَـرْمٍ مُـلاحيٌّ ولا الليـل يانـع غربيـبُ
طـال لـيلٌ كأنمـا العقـربُ ساطٍ فغـابَ عنّـا الدبيـبُ

أقول : و « الثريا » : من الكواكب سُمِّيت لغزارة نَوئها[1] ، وقيل : سُميِّت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مَرآتها ، فكأنها كثيرة العدد بالإضافة[2] إلى ضيق المحل ، وهو تصغير على جهة التكبير .

و « العقرب » : من منازل القمر .

والمعرّي في مقطوعته هذه على عادته في حشد المعارف الكثيرة ، وهو هنا يشير إلى أعلام من الشعراء والفرسان والرجال الذين كان لهم حضور تاريخي ، إنه قال في هذه المقطوعة :

سَلك النّجْدَ فـي فطـار المنايـا قَطَـريٌّ ونَـجدَةٌ وشبيـبُ
شَبَّ فكر الحصيف ناراً فما يحسُنُ يومـاً بعاقـلٍ تشبيـبُ
أين بـقراطُ والمقلّـد جالينـوس هيهـات أن يعـيش طبيـبُ

و « قَطَريّ » في البيت الأول هو ابن الفجاءة التميمي المازنيّ .

و « نَجدة » : هو ابن عامر الحروريّ .

---

(١) أقول : « الثُريّا » مصغّر « الثرى » ، « والثرى » هو التراب الندي ، وقد أخذ العرب دلالة « الثروة » و « الثراء » من « الثرى » الذي هو التراب .. ووجه الشبه « الكثرة » ومن هنا كان معنى « الثريا » وهي مجموعة الكواكب لغزارة نوئها ، وقد ربط العرب بين الغيث وبين الكواكب .

(٢) قوله : « بالإضافة » يراد بها ما يراد في العربية المعاصرة « بالنسبة » وليس معنى الزيادة .

و « شبيب » : هو ابن يزيد بن نعيم ، وهو المعني بقول الشاعر :
« ومنّا أمير المؤمنين يزيد » .
وهو من فرسان الخوارج وخطبائهم (١) .
و « جالينوس » (٢) : أحد مقلدي بقراط وهو خاتمة أطباء اليونان (٣) .
ونجده كذلك في مقطوعة أخرى يكثر من هذا المصطلح الخاص فيقول :

أطلَّ صليبُ الدلو بين نجومه ... يكفّ رجالاً عن عبادتها الصُّلبا
فربّكُمُ الله الذي خلَق السُّها ... وابدى الثريا والسماكين والقَلْبا
وأنحَلَ بدرَ التمّ بعد كماله ... كأن به الظلماء قاصمة قُلْبا
وأدنى رِشاءً للعَراقي ولم يكن ... شريعاً اذا نصَّ البيان ولا خلبا
وألقى على الأرض الفراقد فارتعَتْ ... مع الفرقَد الوحشي ترتقب الألبا
وأهبطَ منها الثور يكرُبُ جاهداً ... فتعلَقَ ظلفيه الشوابكُ والهُلْبا
وأضحَت نعام الجوّ بعد سموّها ... سُدىً في نعام الدّوّ لا تأمن الغُلبا
وأنزلَ حوتاً في السماء فضمّه ... إلى النون في خضراءَ فاعترفَ السلبا
وأسكَنَ في سُكّ من التُرب ضيّق ... نجومَ دُجىً في شبوة أبتِ الثّلبا(٤)

(١) انظر أخبار « شبيب » في « الكامل » للمبرد ، وفي البيان والتبيين للجاحظ .
(٢) انظر ترجمته في عيون الأنباء ٤٣/١ .
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق ٢٤/١ .
(٤) أقول : إن استعمال المصطلح الفلكي في « اللزوميات » وإكثاره منه لم يكن جديداً في صنعة المعري فقد عرفناه في « سقط الزند » في قصيدته النونية التي أجاب فيها عن قصيدة الشريف أبي إبراهيم موسى بن إسحاق ، والتي ذكرنا منها أبياتاً اشتملت على شيء مما هو في أدب الشيعة في الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وولده الحسين في أن كليهما ذهب الى ربّه شهيداً . قال المعري :

والشخوص التي خلقن ضياءً ... قبل خلق المرّيخ والميزان
قبل أن تخلق السموات أو ... تؤمَرَ أفلاكُهن بالدوران
لو تأتّى لنطحها حَمَل الشهب ... تردّى عن رأسه الشرطان

و « المرّيخ » معروف ، وهو أحد الكواكب الذي أشار الشاعر إلى أن العرب اعتقدوا بقدمه .
و « الميزان » من الكواكب أيضاً .
و « حَمَل الشهب » هو برج الحَمَل ، و « الشرطان » كوكبان يقال لهما « قَرْنا الحَمَل » .

أقول : لقد حشد المعري هذا العدد الكثير من مصطلح الفلك ليشير إلى أنه من صنع الله تعالى الذي خلقها وصرّف أمرها في مسراها ومجراها ، وفي هذه المقطوعة إيمان واضح بالله الواحد الأحد .

وقد جاء بهذا المصطلح الذي حفل بأسماء البروج والمنازل فأفاد منه في صنعته الشعرية في الاستعارة والطباق والمجانسة .

فالصليب : هو الشكل المعروف من الخشب وهو خشبتان أو نحوهما متقاطعتان ، ومنه صليب الدلو .

و « الدلو » أحد البروج في السماء .

و « الكفّ » نجم كما أن الكف هو النهي وفي هذا مجانسة .

و « الصُّلْب » : وهو الصُّلُب بضمتين وسُكِّن اللام ضرورة جمع صَليب ، وهو مما يعظّمه النصارى لأنهم يعتقدون أن السيد المسيح صلبه اليهود عليه .

و « السُّها » : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى وقيل الكبرى .

وقد مرّ بنا شرح « الثّريا » .

و « السماكان » : كوكبان نيّران يقال لأحدهما السماك[1] الرامح وللآخر السماك الأعزل .

و « القَلْب » : قلب العقرب ، منزلة من منازل القمر .

و « الدلو » : من منازل القمر أيضاً .

و « الرِّشاء » ، و « الشريع » و « الخِلب » كلها من حبال الدلو ، وقد أتى بها الشاعر مجانسة ليذهب بها إلى منازل القمر . وكذلك « العراقي » ، جمع عُرقُوة ، وهما خشبتان تعرضان على الدلو كالصليب .

---

(١) وقد ورد « السماك » وغيره في قوله :

والرزق يأتي ولم تُبسط إليه يـــدي ... سيّان في ذاك إدنائي وإقصائي

لو أنه في الثريّا والسماك أو الشِّعرَى ... العَبور أو الشعـــرَى الغُميصـــاء

والشعري العبور : هي الشعري اليمانية ، والشعري الغميصاء وهي الشعرى الشامية ، وهما كوكبان يطلع الأول في الجوزاء ويطلع الثاني في الذراع .

و « الفراقد » جمع فرقد ، نجم قريب من القطب الشمالي ، والفرقد الوحشي : ولد البقرة الوحشية .

و « الثور » : من منازل القمر ، وأصله الحيوان المعروف .

و « الهُلْب » : الشعر ، معروف ، وهو هنا كوكب .

و « الحوت » : معلوم ، وهو هنا من منازل القمر .

و « النون » : الحوت أيضاً .

و « شبوة » : أريد بها العلم على العقرب .

وأنت تجد من هذا المصطلح الفلكي في شعره : العقرب والصل وغيرهما . كما تجد « ليوان » وهو اسم « زُحَل » بالفارسية في قوله من مقطوعة:

لو أنّ سوادَ كِيوانٍ خِضابٌ بكَفّكَ والسُّها في الأُذنِ حُبُّ

ولنا أن نتحول إلى معرفة أخرى من معارفه التي حفلت بها اللزوميات وهي الإشارة التاريخية إلى الأحداث والرجال ، ومن ذلك قوله في مقطوعة :

إن رابنا الدهر بأفعاله فكلّنا بالدهر مرتابُ
فاعفُ ولا تعتب عليه فكم أودَى به عَوفٌ وعَتّابُ

أقول : و « عَوف » هو الذي جاء في المثل : « لا حرّ بوادي عوف » ، وجاء أيضاً : « أوفى من عوف » ، وهو عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان ، أو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم .

و « عتّاب » اسم لكثير من الرجال في الجاهلية والإسلام ، وهو جدّ عمرو بن كلثوم الشاعر . وقال أيضاً :

إيّاك والخمرَ فهي خالبةٌ غالبةٌ خابَ ذلك الغَلَبُ
أشأم من ناقة البسوس على الناس وإن يُنَلْ عندها الطَلَبُ

أقول : و « البسوس » معروفة وهي بنت المنقريّ خالة جسّاس بن مرّة البكريّ التي هاجت بسببها الحرب المنسوبة إليها بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وضرب بها المثل في شؤم فقيل : « أشأم من البسوس »[1] .

ومن هذا أيضاً قوله في مقطوعة :

إذا كان رُعْبي يورث الأمنَ فهو لي ... أسَرُّ من الأمن الذي يورث الرُّعبا
ألَم تَرَ أن الهاشميّين بُلِّغوا ... عظام المساعي بعدما سكنوا الشِّعْبا
وكان الفتى كَعْب تخيَّر للسُّرَى ... أخا النَّمْر فاستَدْنى إلى أجلٍ كَعْبا

أقول : و « الشِّعْب : الطريق في الجبل ، وقد أريد به هنا شعب أبي يوسف الذي أوى إليه رسول ﷺ - وبنو هاشم لما تحالفت عليهم قريش ، وكتبوا في ذلك صحيفتهم المشهورة ، وقد قال أبو طالب :

كَذَبتم وبيتِ اللـه نُبري محمداً ... ولمّا تَرَوا يوماً لدى الشعب قائماً[2]

و « كعب » هو ابن مامة الإيادي أحد أجواد العرب ، وقد خرج في بعض أسفاره ومعه رجل من النمر بن قاسط فقلّ ما كان معهما من الماء فتناصفاه ، فكان النمري يشرب نصيبه فإذا أخذ كعب ليشرب قال له : اسق أخاك النمري فيؤثره على نفسه حتى مات عطشاً فضرب به المثل في الإيثار على النفس[3] .

ومن هذا قوله في مقطوعة :

اللـهُ ينقل من شا ... ءَ رُتبةً بعد رُتْبهْ
أبدَى العتاهيّ نُسكاً ... وتابَ من ذكر عُتْبهْ
والخوف ألزَمَ سفيا ... نَ أن يُغرِّق كُتُبَهْ

---

(١) انظر : مجمع الأمثال .
(٢) أقول : والخبر مبسوط ، واستوفاه السهيلي في « الروض الأنف » .
(٣) انظر : « مجمع الأمثال » .

أقول : وهو في قوله هذا يشير إلى أبي العتاهية الشاعر والى « عُتبة » جـارية المهديّ ، وكان يتعشّقها ويشبّب بها .

و « سفيان » : هو ابن سعيد الثوري الكوفي[1] من أعلام المحدثين .

وقد تقف في « لزومياته » على شيء يدل على اضطرابه فيجد في بُعده عن الناس منجاة مما هم فيه من سوء وشر فيقول :

عصاً في يد الأعمى يروم بها الهدى ... أبرُّ له من كل خِدْنٍ وصاحبِ
فأوسِعْ بني حوّاء هجراً فإنهم ... يسيرون في نَهْجٍ من الغدر لاحب
وإن غيّر الإثم الوجوه فما ترى ... لدى الحشر إلا كل أسود شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جَرَّهم ... إلى الغيّ طَبْعٌ أخْذُه أخْذُ ساحب

ويذهب إلى أبعد من هذا فيقول :

لو اتّبعوني ويحهم لهديتُهم ... إلى الحق أو نَهج لذاك مُقارب
فقد عشتُ حتى ملّني ومَلَلْتُهُ ... زماني وناجتني عيون التجارب
فمنَ لي بأرض رَحْبةٍ لا يَحلُّها ... سوايَ تضاهي دارةالمتقارب[2]
فما للفتى إلاّ انفراد ووحدةُ ... إذا هو لم يُرزقْ بلوغ المآرب[3]

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد ٢٥٧/٦ ، المعارف ٢١٧ ، حلية الأولياء ٣٥٦/٦ .

(٢) دارة المتقارب : وهي الدائرة الخامسة من دوائر العروض ، وهو يقول : من لي بأرض واسعة لا ينزلها سواي كدائرة المتقارب المقصورة عليه دون غيره من البحور .

(٣) أقول : إن ميله إلى الانفراد والوحدة والابتعاد عن الناس مما نجده في « اللزوميات » ، وهو يناقض قوله في « سقط الزند » :

ولو أني حُبيتُ الخلْد فرداً ... لما أحببتُ بالخُلد انفرادا
فلا هطلتْ عليّ ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

وإلى مثل هذا جرى في شعر كثير له ، ومنه :

ولي مذهبٌ في هجريَ الإنس نافعٌ إذا القوم خاضوا في اختيار المذاهبِ

إنه هجرهم لبعدهم عن الحق وانحرافهم عن الهدى :

وإن بني حوّاء زُورٌ عن الهدى ولو ضُرِبوا بالسيف ضرْبَ الغرائبِ

أقول : كأن المعرّي في « لزومياته » ، وكان قد فارق الشباب ودرج في كهولته ومشيبه أفاد من تجاربه وعرف الناس فساء رأيه فيهم وعزف عن الدنيا ولذاتها وحبس نفسه على القليل من حاجاته . زهد في مأكله ومشربه وذم الخمر ورآها خالبة للعقل ، وخُيل إليه أن عصره نهاية الدنيا لذيوع الشر ، فقال :

تقادَمَ عمرُ الدهر حتى كأنما نجوم الليالي شيب هذي الغياهبِ
يُهوّد باغي الحاج والليل مُسلم على كفره والأرض في زيّ راهب

وكأنه آمن أن الشرّ هو الغالب على الناس ، وأنه يتعقب الخير ويقول :

لقد تَرَفّعَ فوق المشتري زحل فأصبح الشر فينا ظاهر الغَلَبِ
وإن كِيوانَ والمِرّيخَ ما بقيا لا يخليانك من فجعٍ ومن سَكَبِ

وهو هنا على ما درج عليه في الإفادة من المصطلح العلمي الذي عرضنا له في الصفحات المتقدّمة ، وها هو يقول أيضاً .

يقولون صِنعٌ من كواكب سبعةٍ وما هو إلاّ من زعيم الكواكب
إذا رفَعت تلك المواكب قسطلاً فرافعه للعين مُجري الكواكب

أراد بـ « زعيم الكواكب » خالقها ... والقول بتأثير الكواكب مذهب قديم أبطله الإسلام.

وهو يؤمن بالعقل ويأخذ على الناس بعدهم عن العقل في سلوكهم ومعتقدهم ، وهو في هذا استغفر الله مما لدى الناس في خروجهم عن الحق ، ويقول :

متى عـدّدَ الأقوام لبّاً وفطنـةً ... فلا تسأليني عنهما وسَلي بـي
أرى عالَماً يرجون عفو مليكـهـم ... بتقبيل رُكنٍ واتّخاذِ صليـب
فغفرانَكَ اللهم هل أنا طـارح ... بمكّـة فـي وفدٍ ثياب سَليبـي
عبيدُكَ جَمٌّ ربّنا ولك الغنـى ... ولم تكُ معروفاً برقّ جليـب

وقد تجد في بعض « لزومياته » رأياً في شعر غيره ، وهو على عادته يتخذ من الأعلام أدباء وغيرهم رموزاً يفيد منها في أدبه ، وها نحن أولاء نقرأ قوله :

وجدتُ عواريَّ الحياة كثيرةً ... كأنّ بقـاء المرء شعر حبيـبِ
وتلقاه من فـرط الصبابـة جاهـلاً ... يُغـيّر أعلى رأسـه بصبيـب

أقول : إن قوله : « شعر حبيب » يعني شعر أبي تمام حبيب بن أوس ، وكأن المعرّي يومئ إلى ما عُرف عن أبي تمام من أنه كثير الإغارة على معاني غيره ، فما يلبث أن يظهر ذلك لمستحسنها .

إن إيماءات أبي العلاء إلى الرجال الذين عرفوا واشتهروا بشيء مصدر من مصادر الشاعر في فكره وأدبه ، إنها تظهر سعة معارف المعرّي فهو يقول مثلاً في ثالث بيت من مقطوعه هي أبيات ثلاثة :

والشرُّ ينـشر بعـد الخـير ميّتـه ... كما أصاب عميراً ما جَنَى ضابي

أقول : عمير هو ابن ضابئ قتله الحجّاج بجناية أبيه ضابئ[1] ، وكان أحد من شارك في مقتل عثمان بن عفّان ، وحجته قوله :

---

(١) هو ضابئ بن الحارث التميمي البرجمي ، شاعر ، كثير الشر عاش في المدينة إلى أيام عثمان . انظر : المعاني الكبير لابن قتيبة ٧٣٥و٧٥٥و٧٦٣ ، ومعاهد التنصيص ١/١٨٦ .

هَمَمْتُ ولم أفعل وكدت وليتني تركتُ على عثمان تبكي حلائلُهْ

وهو من أشراف الكوفة وخبره معروف .

ومن هذه الإيماءات قوله :

والناس كالخيل ما هُجْنَ بمعطيةٍ في مَرْيها كعطايا آل حلّاب
استغفرِ اللهَ واترك ما حكَى لهم أبو الهذيل[1] وما قال ابن كلّاب

أقول : الحلاّب : فحل من فحول الخيل ، وكأنّ « آل حلاّب » الخيل المعروفة بهذا الاسم . وأبو الهذيل هو المعروف بالعلاف أحد متكلمي المعتزلة ، وابن كلاّب هو عبدالله بن سعيد بن كلاّب من رجال الأشعرية ، وقد فارقهم لآراء خاصة في علم الكلام .

وهو في إيماءاته المعرفية حاضر الذهن فيها ، يقتنص منها ما هو شيء من المجانسة فهو يقول في أول بيتين :

أسْوانُ أنت لأن الحيّ نيّتهم أسوان أي عذاب دون عيذاب

إنه جمع بين « أسوان » فَعْلان من الأسى ، و« أسوان » بلد في صعيد مصر ، فكان من ذلك مجانسة حرص عليها المعرّي ، ثم إنه جمع بين « عذاب » وهو معروف و « عيذاب » من أسماء الحواضر القديمة في مصر على سبيل « الجناس الناقص » .

ومن معارف المعرّي معرفته بالأنساب والقبائل فهو يقول :

ليالٍ ما تُفيق من الرزايا فويحي من عجائبها وويْبي
أعادت أسدُها أسداً أكيلاً وأودَى ذئبها بأبي ذُؤيبِ

(٢) هو محمد بن الهذيل ، من أئمة المعتزلة ، توفي سنة ٢٣٥ ، انظر : وفيات الأعيان ١/٤٨٠ ، لسان الميزان ٥/٤١٣ .

فقد جمع بين « الأُسد » جمع أسَد » و « أسَد » وهو أبو قبيلة من مضر ، وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، و « أسد » أبو قبيلة من ربيعة أيضاً .

ونقرأ في شعره جملة فوائد تتجاوز اللغة والتاريخ ، بل إننا نرى في القصيدة أو المقطوعة إشارات نقدية أدبية إلى جانب نقده للناس وما هم فيه في سلوكهم ونظرهم ، فهو يقول :

بني الآداب غرّتكم قديماً ... زخارف مثل زمزمة الذُباب(١)
وما شعراؤكم إلاّ ذئاب ... تَلَصّص في المدائح والسِّباب
أضرُّ لمن تَوَدّ من الأعادي ... وأسرق للمقال من الزَّباب
معاذَ الله قد ودّعتُ جهلي ... فحسبي من تميم والرباب(٢)
أحاديث الضباب وآل كعب ... نبذتُ سوالكاً دَرَجَ الضباب(٣)
وماسمُّ الحَباب لديَّ إلاّ ... كنظمٍ قيل في آل الحباب(٤)

---

(١) أقول : لقد أشار المعري إلى صنعة الشعر فأخذ على كثير منها أنها « زخارف » وزينة ونعتها بـ « زمزمة الذباب » . ونبز الشعراء بقوله : إنهم ذئاب شغلوا بالمديح والهجاء ، وإن بعضهم لبعضهم ذئاب يتلصّصون ، وهم أضر من الأعادي ، يسرق بعضهم بعضاً فيأتي أحدهم بما قاله الآخر .

(٢) الرباب : أحياء ضبّة وهم تيم وعدي وعوف وثور ، سُمّوا بذلك لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبّة على بني تميم بن مر ، فغمسوا أيديهم في رب وتعاقدوا ، أو لأنهم تَرَبّبوا أي تجمعوا .

(٣) والضباب وآل كعب من القبائل المعروفة ، وقد ذهب الشاعر من « الضباب » الى مجانسة لفظية فأتى بـ « دَرَج الضباب » ، والدَرَج : المشي ، وقوله : « درج الضباب » مثل يضرب لمن شوهد منه أمارات الترك والهجر ، يقال « خلّه دَرَج الضبّ » أي دعه يدرج دروجه ويذهب ذهابه ، والهاء في « خلّه » تعود إلى الرجل .
وقيل في المثل : إن معناه « دعه في جحْره » وذلك أن الضب يحفر جحره درجاً بعضه تحت بعض ، فإذا دخل لم يُدرك ، فعلى هذا تكون الهاء في « خلّه » للسكت ، أي خلّ دَرَج الضب ، أي طريقه لئلا يسلك بين قدميك فتنفخان ، وعلى هذا فهو يضرب لمن طلب السلامة من الشرّ .

(٤) أقول : ويفيد المعري من التجانس بين اللفظين ، فهو قد جمع في هذا البيت بين « الحُباب » بضم الحاء ، وهو الحيّة و « الحباب » في قوله : « آل الحباب » . و « آل الحباب » لا بد أن يكونوا جماعة من العرب ولكني لم أهتد إليهم .

ونمضي في هذه القصيدة وما اشتملت عليه في إيماءاتها التاريخية . وكأن المعرّي أراد في لزومياته أن ينقل صنعة الشعر من « غنائيتها » إلى فوائد معرفية يستعان فيها بالكلمة الجميلة تعريضاً وتصريحاً وتقريراً وإيماءً ، ومن هذا قوله :

لَيَعْدُ مع الضَّباب سليل حُجرٍ وسائر قوله في ابن الضباب

أقول : أراد بـ « سليل حُجر » امرأ القيس بن حجر . و « ابن الضباب » : هو سعد ابن الضباب الإيادي ، سيّد إياد وكان أجار امرأ القيس لما فرّ من المنذر بن ماء السماء ، وكان المنذر قد غزا كندة وأسر اثني عشر فتىً من ملولهم وقتلهم في مكان واحد بين الحيرة والكوفة ، وكان امرؤ القيس معهم فهرب واستجار بسعد بن الضباب فأجاره .

ويقول :

فما أمّ الحُوَيرث في كلامي بعارضة ولا أمّ الرّباب

أقول : كأنّ المعرّي أراد بـ « أم الحويرث » و « أم الرباب » جمهرة النساء ، فهو كأنه قال : إن المرأة لا تشغله ، وليس هو كغيره من الشعراء في صلاتهم بالمرأة . ولم يُرد بـ « أم الرباب » بنت امرئ القيس التي قيل فيها : إنها من أحسن النساء وجهاً وأفضلهن عقلاً وأدباً .

ثم إنه أراد أن يقول : إنه على غير ما درج عليه الشعراء في صنعتهم ، وعلى غير ما درج الناس في سلوكهم وعيشهم ، وإنه فريد في زمانه بما زهد فيه وعرف عنه ، قال :

وإنّ مقاتل الفرسان عندي مصارع تلكم الغَنم الرُباب(١)
وألفيت الفصاحة عن لساني مسلّمةً إلى العرب اللباب

(١) و « الرُباب » بضم الراء ،جمع ربّى ، وهي الشاة إذا ولدت ، وإذا مات ولدها أيضاً والحديثة النتاج ، وقد ساوَى في هذا البيت بين موت الفرسان وموت الرُباب ، وهي الشياه التي ذكرناها . إنه يسخر مما درج عليه الناس فيما يرون ويفعلون .

شُغـولٌ ينقضـين بغيـر حمـدٍ ولا يرجعـنَ إلاّ بالتبـاب
ذروني يفقد الهذيان لفظـي وأغلق للحمـام عليّ بابـي

ونقرأ في مقطوعة أخرى أوّلها :

ادأبْ لربّكَ لا يلومكَ عاقـلٌ في سِجن هذي النفس أو إدآبهـا

أقول : في هذا البيت يشير إلى أن « النفس » محبوسة في جسم الإنسان ، ومن هنا قال :

أراني في الثلاثة مـن سجـونـي .....

وكأنه عدل بقوله هذا عن نعت نفسه بـ « رهين المحبسَين »

ونقرأ فيها قوله :

لا تأمنَنّ مـن الدهـور تغيّراً حتى تكون ظِباؤها كذئابهـا
ويصير في شيبان مخبأ غرسهـا ويعود مسقط ثلجها في آبهـا(١)
أبقت أحاديث الرجال وأهلكت سلفي عُتَيبتها وآل ذؤابهـا(٢)

ومن إشارات المعري التاريخية التي أشار بها إلى معرفة مفيدة قوله في مقطوعة :

وإذا لصوص الأرض أعيت والياً ألقـى السـؤال بهـا علـى تَوّابهـا

أقول : قوله : « على توابها » إشارة الى « التوّابين » الذين كانوا لصوصاً ثم تابوا فاستعملهم صاحب الشرطة مستعيناً بهم على معرفة اللصوص .

ثم إن حديث المعري في « اللزوميات » عن الدنيا وشرها كثير ، فهو يخشاها لأنها سقم للإنسان تستعبده فتهلكه ، فهو يعرض لها فـي كثير من « لزومياتـه » ، فقد قال في إحداها :

---

(١) و « شيبان » اسم كانون الثاني أول شهور الشتاء ، و « آب » من أشهر الصيف .

(٢) و « عتيبة » : هو ابن الحارث اليربوعي و « ذؤاب » : هو ابن ربيعة الأسدي .

أقول : لم يسع المعري في ذكره لهذه الأسماء من صنعته التي هي « لزوم ما لا يلزم » بل إنه أراد

لا تلبس الدنيا فإنّ لباسها سَقَم وعَرٌّ الجسم من أثوابها
أنا خائف من شرّها متوقّع إكآبها لا الشُّرب من أكوابها[1]
جيبتْ فلاة للغنى فأصابه نَفر وصين الغيب عن جُوّابها[2]
آوى بها الله الأنام فما أوَى لمحالفي دَدِها ولا أوّابها[3]

وهو يدعو إلى التخلص من هذه الدنيا الشريرة ولو كان الخلاص « غائلة الردى » فيقول :

أهلاً بغائلة الردى وإيابها كما تُستّرني بفضل ثيابها
دنياك دارٌ إنْ يكن شُهّادُها عُقلاءَ لا يبكوا على غُيّابها

وهو في صنعته في « اللزوميات » شق فيها على نفسه فأعمل الفكر ونقّب في نوادر معجمه مع التزامه ان يحافظ مع هذا النصب المضنى على ما يريد من معانٍ انفرد بها تتجاوز مادة الزهد في الحياة والبعد عن الدنيا وأهلها .

قال مثلاً في إحدى مقطوعاته:

خَبَرَ الحياة شرورها وسرورها من عاش عِدَّة أول المتقارب
وأنى بذلك أربعين فماله عذرٌ إذا أمسى قليلَ تجارب

— أن يوسع من دائرة الشعر فيجعله صنعة فنية تتسع لمعارف كثيرة .

(١) ذهب المعري في هذا البيت إلى عسرة من البناء فجمع بين « الإكآب » من الكآبة وبين « الأكواب » ، والجمع مقصود ذهب إليه ليقول للأديب من أهل العربية وبينهم الشعراء إنه بذهم جميعاً ، وملك عبقرية العربية .

(٢) وهو في هذا البيت وصل في بنائه إلى الجمع بين الفعل « جيبت » والاسم وهو « جُوّاب » جمع « جائب » إن هؤلاء « الجوّاب » لم يصيبوا ما أصابه نفر قليل من الغنى في الدنيا التي كانت للكثيرين « فلاة » غاب فيها ما حصل عليه القليلون .

(٣) ثم انظر الى الفعل « آوَى » متلواً بالجار والمجرور « بها » ، وهذا يرمي إلى كلمة الروي وهي « أوّابها » ، إنها لصنعة شاقة .

أقول : أشار في البيت الأول إلى « المتقارب » وهو الذي يذهب إلى بحر المتقارب من بحور الشعر وهو مبني من « فَعولُن » ثماني مرّات ، وعدد أحرف « فعولن » خمسة فتكون عدّة المتقارب أربعين .

وقد أراد بهذه الصنعة أن صاحب الأربعين لم يملك من تجارب الحياة إلا القليل .

وقال في مقطوعة أشار فيها إلى شيء آخر من بحور الشعر مفيداً في معنى خاص من بنات أفكاره :

إذا أبْنـــا أبٍ واحـــدٍ أُلفِيـــا ... جـواداً وعَيْراً فـلا تعجَبِ
فإن الطويـل نجيـب القريـض ... أخـــوه المديـــد ولـم يَنْجُبِ
ويشجُبُ كل امرئٍ في الزمان ... مِـن آلِ عـدنان أو يشجُبِ

وأنت هنا تقف على ما أراده من اختلاف ولدين من أب واحد أحدهما كان ذكياً « جواداً » خيّراً والآخر غبي لا نفع فيه كالعَيْرْ . وضرب لهذا مثلاً بالطويل والمديد من بحور الشعر ، وهما في دائرة الطويل في علم العروض مبني من فعولن مفاعلين ، وهو كثير في الشعر أثير لدى الشعراء ، والمديد قليل الاستعمال ، ومستعمَله مجزوء ، وقد أشار الى هذه الحقيقة بقوله : « لم ينجب » .

وجمع في البيت الثالث بين الفعل « يشجب » بمعنى « يهلِك » و « يشجب » وهو ابن يعرب بن قحطان أبو اليمانية ، وقد سبقه بـ « عدنان » أبو المَعَدّية .

أقول : هذه الإشارات التاريخية التي تتصل بالرجال من الأعلام وبالقبائل وأنسابها والأقوام والطوائف نجدها في سائر مقطوعاته وقصائده في « اللزوميات » .

الخلاصة :

إن « اللزوميات » مصدر وافٍ لكثير من المعارف ، وهي بهذا تتجاوز حدود مجموعات الشعر ودواوينه . إنه وثيقة مهمة أراد بها أبو العلاء أن يظهر على رجال عصره من أهل العلم كافة .

ثم إنها مصدر للعربية نجد فيه الفرائد والنـوادر مما لا نجده في كتاب من كتب العربية ، وكان له فهم في التصرف بهذه الثروة اللغوية .

ثم إنك إذا عرفت أن له من مصنفات النحو عدداً عرض فيها لآراء النحاة ووقف من « كتاب » سيبويه وقفات غير التي ذكرها شرّاح « الكتاب » أدركت أنه أحد علماء العربية الذي اجتمعت له علوم العربية ، وقد تدرك هذا من أنه امتلك من علوم العربية قدراً لم نجده لدى الكثيرين من أهل هذه الصنعة فهو لغوي صاحب معجم واف فريد في سعته وخصوصيته ، وهو نحوي ضليع تصدّى لكتاب سيبويه شارحاً يمتلك نظر المختص ، وهو عروضي قل أن يضارعه في هذا الفن أصحاب الصنعة الذين عرفوا بها . إن مقدمة « اللزوميات » تظهر سعة إدراكه لهذا الفن . وقد أشار إلى شيء من لطائف هذه الصنعة في مقطوعات « لزومياته » وهو القائل :

وقد يخطئ الرأيَ امرؤ وهو حازم كما اختلَّ في وزن القريض عَبيد

و « عبيد » هو ابن الأبرص أحد أصحاب المطولات المشهورة الذي وقف أهل العروض غير مهتدين إلى وزن قصيدته التي مطلعها :

أقفَـــرَ مـن أهلـه ملحـوبُ فالقُطَّبِيـــاتُ فالذَنـــوبُ

وكأنّ المعري أراد في « لزومياته » أن يقول : إن الشعر ليس الأغراض التي درج عليها الشعراء قبل زمانه وفي عصره ، بل إنه يتجاوز القول الذي ذهب إليه أهل السعة من « أنه ديوان العرب » .